الفصل الخامس

مَا يُعِينُ عَلَى الصَّبْرِ فِي الْقُرْآنِ

ومع مشقة الصبر ، وصعوبته على النفس ، أشار القرآن إلى جملة أمور تعين على الصبر ، وتهوِّنه على النفس . منها :

١- المعرفة بطبيعة الحياة الدنيا

فأقرب ما يُعين الإنسان على الصبر ، وخاصة على النوائب والشدائد ـ أن يصبح تصوره للحياة التى يعيش فيها ، ويعرفها على حقيقتها ، فليست جنة نعيم ، ولا دار خلود ، إنما هى ابتلاء وتكليف ، خُلِقَ الإنسان فيها ليُصقل ويُبتلى ليُعد لحياة الخلود فى الدار الباقية . ومن عرف الحياة على هذا النحو لم يفاجأ بكوارثها ، فالشىء من معدنه لا يُستغرب .

أما من كان من الناس يتصور الحياة طريقاً مفروشاً بالأزهار والرياحين ، فإنه إذا نزل به شىء مهما قل وضؤل ، كان أشد ما يكون على نفسه ، لأنه لم يكن يتوقع شيئاً منه .

والقرآن الكريم يشير إلى أن حياة الإنسان محفوفة بالمتاعب والمشقة ، حين يقول : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ (البلد: ٤).

كما يشير إلى طبيعة الحياة ودوام تغيرها ، وأنها لا تلبث على حال ، فيوم لك ويوم عليك : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١٤٠).

لقد خلق الله الحياة الدنيا على طبيعة اختلطت فيها اللذائذ بالآلام . والمحاب بالمكاره ، فهيهات أن ترى فيها لذة لا يشوبها ألم ، أو صحة لا يكدرها سقم ، أو سروراً لا ينغصه حزن ، أو راحة لا يخالطها تعب ، أو اجتماعاً لا يعقبه افتراق ، أو أماناً لا يلحقه خوف . إن هذا ينافى طبيعة الحياة ، ودور الإنسان فيها . وهذا

ما أدركه الحكماء والأدباء والشعراء من قديم ، فنطقت به ألسنتهم وأقلامهم شعراً ونثراً . قيل لعلىٍّ بن أبى طالب رضي الله عنه : صف لنا الدنيا . فقال : ماذا أصف لك من دار أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء ؟ !

وما أجمل ما قال فى ذلك الشاعر العربى يصف الدنيا :

جُبلتْ على كدر وأنــت تُريــدها صــفواً مــن الآلام والأكــدار !
ومُكَلِّفُ الأيــام ضــدَّ طباعهــا متطلب فى المــاء جــذوة نــار !

يقول العلامة ابن القيم فى «زاد المعاد» فى بيان علاج حر المصيبة وحزنها : «ومن علاجه : أن يطفئ نار مصيبته ببرد التأسى بأهل المصائب وليعلم أنه فى كل واد بنو سعد ، ولينظر يمنة فهل يرى إلا محنة ، ثم ليعطف يسرة فهل يرى إلا حسرة؟ وإنه لو فتش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى : إما بفوات محبوب ، أو حصول مكروه . وإن سرور الدنيا أحلام نوم أو كظل زائل . إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً ، وإن سرَّت يوماً أساءت دهراً . وإن متعت قليلاً منعت طويلاً ، وما ملأت داراً حبرة ، إلا ملأتها عبرة ، ولا سرته بيوم سرور ، إلا خبأت له يوم شرور».

وقال ابن مسعود : «لكل فرحة ترحة ، وما ملئ بيت فرحاً ، إلا مُلئ ترحاً».

وقال ابن سيرين : «ما كان ضحك قط ، إلا كان من بعده بكاء».

وقالت هند بنت النُعمان بن المنذر ملك العرب : «لقد رأيتنا ونحن من أعز الناس وأشدهم مُلكاً ، ثم لم تغب الشمس حتى رأيتنا ونحن أقل الناس ! وإنه حق على الله ألا يملأ داراً حبرة إلا ملأها عبرة».

وسألها رجل أن تُحدِّثه عن أمرها ، فقالت : «أصبحنا ذات صباح وما فى العرب أحد إلا يرجونا ، ثم أمسينا وما فى العرب أحد إلا يرحمنا»!!

وبكت أُختها حُرقة بنت النعمان بن المنذر يوماً ، وهى فى عزِّها ، فقيل لها : ما يبكيك ؟ لعل أحداً آذاك ! قالت :«لا . ولكن رأيت غضارة فى أهلى ، وقلما امتلأت دار سروراً ، إلا امتلأت حزناً».

قال إسحاق بن طلحة :«دخلت عليها يوماً ، فقلت لها : كيف رأيت عبرات الملوك ؟ فقالت : ما نحن فيه اليوم خير مما كنا فيه الأمس . إنا نجد فى الكتب أنه

ليس من أهل بيت يعيشون فى حَبرة ، إلا سيعقبون بعدها عبرة . وإن الدهر لم يظهر بقوم بيوم يحبونه إلا بطن لهم بيوم يكرهونه ، ثم قالت :

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا ... إذا نحن فيهم سوقة نتنصف !
فأف لدنيا لا يدوم نعيمها ... تقلّب تارات بنا وتُصرِّف !

٢- معرفة الإنسان نفسه

وأعنى بذلك أن يعرف الإنسان أنه مِلْكَ لله تعالى أولاً وآخراً . الله هو الذى خلقه من عدم ، ومنحه الحياة والحس والحركة ، ووهب له السمع والبصر والفؤاد ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة . إذا كان لديه صحة وقوة فهى من الله ، وإن كان له مال فهو من الله . وإن كان عنده ولد فهو من الله . وصدق الله إذ يقول : ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ** ﴾ (النحل:٥٣).

فإذا نزل بالمرء نازل سلبه شيئاً مما عنده . فإنما استرد صاحب الملْك بعض ما وهب . ولا ينبغى للمودع أو المستعير أن يسخط على المالك إذا استرد يوماً من الدهر وديعته أو عاريته . وقديماً قال لبيد :

وما المال والأهلون إلا ودائعٌ ... ولا بُدَّ يوماً أن تُرَد الودائعُ

ومن ثَمَّ علَّم القرآن الصابرين الذين كتب لهم البشرى والصلوات والهداية والرحمة أن يقولوا إذا أصابتهم مصيبة : ﴿ **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ** ﴾ (البقرة:١٥٦).

يقول ابن القيم[١]: « وهذه الكلمة ، من أبلغ علاج للمصاب ، وأنفعه له فى عاجلته وآجلته ، فإنها متضمنة أصلين عظيمين ، إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته .

أحدهما : أن العبد وأهله وماله ملْكٌ لله عز وجل ، وقد جُعِلَ عند العبد عارية ، فإذا أخذه منه فهو كالمعير يأخذ قناعه من المستعير .

وأيضاً ، فإنه محفوف بعدمين : عدم قبله ، وعدم بعده ، وملك العبد له متعة معارة فى زمن يسير . وأيضاً فإنه ليس الذى أوجده عن عدمه ، حتى يكون ملكه حقيقة ، ولا هو الذى يحفظه من الآفات بعد وجوده ، ولا يبقى عليه وجوده ، فليس له فيه تأثير ولا ملك حقيقى .

---

(١) زاد المعاد : جـ ٣ صـ ٢٦٥ ط . السنة المحمدية .

والثانى : أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق ، ولا بد أن يخلف الدنيا وراء ظهره ، ويجىء ربه فرداً ، كما خلقه أول مرة ، بلا أهل ولا مال ولا عشيرة . ولكن بالحسنات والسيئات ، فإذا كانت هذه بدايته ونهايته ، فكيف يفرح بموجود ، يأسى على مفقود ؟ ! ففكره فى مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء . ا هـ .

وأيَّدَ ذلك الحديث النبوى الذى يُعَلِّم المصاب أن يقول أيضاً : « إن لله ما أخذ ، ولله ما أعطى ».

وفى الصحيحين وغيرهما فى قصة أُم سليم مع زوجها أبى طلحة ، حين مات ابن لهما ، وأبو طلحة خارج ، فقامت الأُم إلى الصبى فَغَسَّلته وكفنته وحَنَّطَته (طيبته بالحنوط) وسجت عليه ثوباً ، فلما جاء أبو طلحة قال : كيف الغلام ؟ فقالت : قد هدأت نفسه ، وأرجو أن يكون قد استراح ! (تعنى بالموت) وظن هو أنه استراح بالنوم لمجىء العافية ، ثم تعرَّضت له فأصاب منها ، فلما أراد أن يخرج قالت له : يا أبا طلحة ، أرأيت لو أن قوماً أعاروا أهل بيت عارية ، فطلبوا عاريتهم ، ألهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا . إن العارية مُؤداة إلى أهلها . فقالت : إن الله أعارنا فلاناً (وسمت ابنها) ثم أخذه منا . فاسترجع . فصَلَّى مع النبى ﷺ فأخبره بما كان منهما . فقال رسول الله ﷺ : « لعل الله أن يبارك لكما فى ليلتكما ».

فقال رجل من الأنصار : فرأيت لهما (أى من ابنهما عبد الله) تسعة أولاد كلهم قد قرأوا القرآن .

والشاهد فى القصة ما جاء على لسان أم سليم رضي الله عنها أن الأولاد عارية من الله يمنحها لعباده حين يشاء ، ويستردها متى شاء . ولا ريب أن الإيمان بهذه الحقيقة يعين على الصبر ، ويهون على المصاب ألم المصيبة ، مادام صاحب الوديعة أو العارية قد استرجعها . إنه صاحب الفضل حين يمنح ، وصاحب الحق حين يسترد ما منح ، وخصوصاً أنه فى هذه وتلك لا يصدر إلا عن حكمة .

٣- اليقين بحسن الجزاء عند الله

فإن مما يحثُّ الإنسان على عمل ما ، ويُثَبِّته عليه ، ويُزيده رغبة فيه ، وحرصاً عليه ، أن يطمئن إلى أنه مجزىٌّ عليه جزاء مرضياً ، ومن هنا وضعت الدول والمؤسسات المكافآت التشجيعية والجوائز التقديرية للمحسنين والمتفوقين .

والقرآن يشير إلى أن الصابرين ينتظرهم أحسن الجزاء من الله تعالى ، وذلك حين يرجعون إليه ، ويقفون بين يديه ، فيعوِّضهم عن صبرهم أكرم العوض ، ويمنحهم أعظم الأجر ، وأجزل المثوبة ، حتى ورد : « إن أهل العافية يتمنون يوم القيامة لو أن أجسامهم كانت تُقرض بالمقاريض فى الدنيا ، لما يرون من عظم ثواب الله لأهل البلاء » .

ولا نجد فى القرآن شيئاً ضخم جزاؤه ، وعظم أجره ، مثل الصبر .

فهو يتحدث عن هذا الأجر بأسلوب المدح والتفخيم فيقول : ﴿ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (العنكبوت:٥٨،٥٩).

وهو يبين أن الصابرين إنما يُجزون أجرهم بأحسن ما عملوا ، فضلاً من الله ونعمة ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل:٩٦).

وأخيراً يُصَرِّح بأن أجر الصابرين غير معدود بَعد ، ولا محدود بحَد ، ولا محسوب بمقدار . وذلك فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الزمر:١٠) قال بعض المفسرين : يُغْرف لهم غرفاً ، ويُصب عليهم صباً . هذا مع قوله تعالى فى جزاء المخلصين من عباده ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ (الصافات:٤١).

وإذا كان هذا جزاء الصابرين عند الله ، فالواجب على المؤمن إذا أصابته مصيبة أن يتذكر هذه الحقيقة الكبيرة : أن مصيره إلى الله مهما تطل هذه الحياة ، وأن أجره عنده لن يضيع . وهذا ما وصف به القرآن الصابرين حين قال : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ (البقرة:١٥٥،١٥٦). . فإذا قالوا : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ ﴾ تذكروا بها حقيقة أنفسهم ، وأنهم ملْكٌ لله ، وإذا قالوا : ﴿ وَإِنَّآ إِلَيْهِ

رَٰجِعُونَ ﴾ تذكروا حسن الجزاء عند ربهم ، فدفعهم ذلك إلى حُسن الصبر والسلوان . وقد جاء عن عمر قوله :« ما أُصبت ببلاء إلا كان لله علىَّ فيه أربع نعم : أنه لم يكن فى دينى ، وأنه لم يكن أكبر منه ، وأنى لم أُحرم الرضا به ، وأني أرجو ثواب الله عليه ».

فكان رجاء ثواب الله على البلاء ـ فى نظر عمر ـ أحد الأسباب المُلَطِّفة له ، إلى حد نقله من دائرة المصائب التى يصبر عليها ، إلى دائرة النِعَم التى يشكر عليها .

وحدَّثوا : أن امرأة فتح الموصلى ـ وكانت من الصالحات ـ عثرت فانقطع ظُفرها ، وفى هذا من الألم ما فيه . ولكنها حمدت الله وضحكت ، فقيل لها : أما تجدين الوجع ؟ فقالت :« إن لذة ثوابه أزالت عن قلبى مرارة وجعه »!

إن يقين الإنسان بحسن الجزاء ، وعِظَم الأجر عند الله ، على البلية يُخفف مرارتها على النفس ، ويُهَوِّن من شدة وقعها على القلب ، وكلما قوى اليقين ، ضعف الإحساس بألم المصيبة ، حتى تنتقل لدى النفس من المكاره إلى المحاب ، كما رأينا فيما جاء عن عمر .

ومن دلائل ذلك ما جاء فى الحديث من أدعية النبى ﷺ أنه كان يقول :« اللَّهم اقسم لنا من خشيتك ما تَحول به بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك ما تُبَلِّغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تُهَوِّن به علينا مصائب الدنيا »[1].

وقال أبو طالب المكى : « وأصل قلة الصبر ضعف اليقين بحسن جزاء من صبرت له . لأنه لو قوى يقينه ، كان الآجل من الوعد عاجلاً ، إذا كان الواعد صادقاً ، فيحسن صبره ، لقوة الثقة بالعطاء . ولا يصبر العبد إلا بأحد معنيين : مشاهدة العِوَض ، وهذا مقام أصحاب اليمين ، والنظر إلى المُعَوِّض ، وهو مقام المقربين »[2] ا هـ.

وفى قوله ﴿ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ نظر إلى العوض والمُعَوِّض جميعاً .

---

(١) رواه الترمذي وحسَّنه ، والنسائى فى «اليوم والليلة» ، والحاكم ، وقال : صحيح على شرط البخارى من حديث ابن عمر . كما فى تخريج الحافظ العراقى للإحياء .

(٢) قوت القلوب .

٤- اليقين بالفرج

مما يُعين على الصبر : اليقين بأن نصر الله قريب ، وأن فرجه آت لا ريب فيه ، وأن بعد الضيق سعة ، وأن بعد العسر يُسراً ، وأن ما وعد الله به المؤمنين من نصر ، وما وعد به المبتلين من العوض والإخلاف ، لابد أن يتحقق .

هذا اليقين جدير بأن يُبَدِّد ظُلمة القلق مِنَ النفس ، ويطرد شبح اليأس من القلب ، وأن يُضيء الصدر بالأمل فى الظَفر ، والثقة بالغد ، وهذا كسب نفسى كبير ، فإن الأمل قوة مُحَرِّكة ، وشحنة دافعة إلى الأمام ، أما اليأس فهو داء وبيل ، بل قتَّال .

إن الذى أعان يعقوب على الصبر ، أمله فى الله ، وثقته بالمستقبل ، وأن الله لن يضيع صبره وعمله . ولهذا قال بعد أخذه ولده الثانى واحتجازه فى مصر : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ (يوسف:٨٣) وقال لبنيه : ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (يوسف:٨٧).

ولا عجب أن تكرر فى القرآن الأمر بالصبر مقروناً بالتذكير بأن وعد الله حق ، أى لا يتخلف أبداً ، لأن الذى يُخلف وعده ، إما عاجز أو كاذب ، وتعالى الله عن ذلك ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ (الزمر:٢٠).

ففى سورة الروم : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (الروم:٦٠) ، وفى سورة غافر : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ (غافر:٥٥).

وفيها أيضاً : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ (غافر:٧٧).

ووعد الله الحق للصابرين يتمثل فى جملة أشياء .

(أ) الوعد بالسعة بعد الضيق ، وبالعافية بعد البلاء ، وبالرخاء بعد الشدة ، وباليسر بعد العُسر .

وفى هذا يقول القرآن ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (الطلاق:٧)، بل يقول فى سورة الشرح : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (الشرح:٥،٦) فلم يجعل اليُسر بعد العُسر أو عقبه بل معه ، وذلك لِيُنَبِّه على أمرين :

الأول : قُرب تحقق اليُسر بعد العُسر حتى كأنه معه ، ومتصل به ، وفى هذا قال بعض السلف : « لو دخل العُسر جحراً لتبعه اليُسر » .

الثانى : أن مع العُسر بالفعل يُسراً ، لا ريب فيه ، قد يكون ظاهراً ملموساً وقد يكون خفياً مكنوناً . وذلك ما نسميه «اللطف» ففى كل قَدَرٍ لطف ، وفى كل بلاء نعمة ، وفيه يقول ابن عطاء الله السكندرى :

من ظن انفكاك لطفه عن قدره ، فذلك لقصور نظره : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (يوسف: ١٠٠).

(ب) وعده بحسن العاقبة لأهل الصبر والتقوى ، مهما ازدحمت طريقهم بالأشواك ، وضُرِّجت بالدماء ، فالعبرة بالعواقب ، والمدار على الخواتيم .

وفى هذا يحكى القرآن على لسان موسى ناصحاً قومه ، بعد أن هددهم فرعون بما هددهم من التقتيل والتعذيب والتنكيل : ﴿ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الأعراف: ١٢٨).

ويخاطب الله تعالى خاتم رسله محمد ﷺ بعد أن قَصَّ عليه قصة نوح عليه السلام مع قومه وابنه وما انتهى إليه أمرهم ، ثم يعقب على القصة بقوله : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (هود: ٤٩).

وقصص الرسل مع أقوامهم التى حفل بها القرآن ، تؤكد هذا القانون الإلهى : أن العاقبة لأهل الصبر والتقوى .

قد تكون الأيام دولاً ، والحرب سِجالاً ، ولكن النتيجة فى صالح أهل الإيمان .

بل قد تشتد المحن ، وتتفاقم الفتن ، وتُقبل الشدائد كأمواج البحر ، وتأخذ بخناق المؤمنين ، وتزيغ الأبصار ، وتبلغ القلوب الحناجر ، وتظن الناس بالله الظنون[1]، ويُبتلى المؤمنون ويزلزلون زلزالا شديداً ، وفى هذه اللحظات يكون نصر الله أقرب ما يكون على سنة الله فى الطبيعة ، حيث نرى الرعود القاصفة ، والبروق الخاطفة ، بسير الغيث والرحمة ، ونرى أحلك سويعات الليل ظُلمه وسواداً هى التى تسبق بزوغ الفجر ، ولهذا قيل :

اشـــتدى أزمـــة تنفرجـــى ... قـــد آذن ليلـــك بـــالبلج

---

(١) كما حدث للمسلمين في غزوة الأحزاب ووصفه الله فى كتابه فى سورة الأحزاب .

وقال الآخر :

ولرُبَّ نازلة يضـــيق لهـــا الفـــتى ذرعاً ، وعند الله منـــها الْمَخـــرجُ
ضاقت ، فلما استحكمت حلقاتـــها فُرجت ، وكنت أظنها لا تُفـــرَجُ

والقرآن يتحدث عن هذه السنة الإلهية مع رسل الله فيقول : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (يوسف: ١١٠).

وقد يخيل لبعض الناس حين يرون الظالمين والطغاة يرفلون فى حُلل العافية أن قَدَرَ الله قد غفل عنهم ، وحاشى لله ، فإنه يُمهل ولا يُهمل . وفى الحديث الصحيح : « إن الله لَيُملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته » ثم تلا : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (هود: ١٠٢).

(جـ) الوعد بحسن العوض عما فات ، والإخلاف عما فقد ، فإن الله لا يضيع عنده أجر عامل ، ولا مثوبة محسن ، كيف وقد وعد وعداً مؤكداً أنه لا يضيع أجر المحسنين . وهذا يشمل الدنيا والآخرة جميعاً . فهو فى الدنيا يُعَوِّضهم ويُخلف عليهم خيراً مما حُرِموا ، ويُمَكِّن لهم بعد أن غُلِبوا ، وهو فى الآخرة يُؤتيهم أجورهم بغير حساب .

يقول تعالى واعداً المهاجرين فى سبيله بحسن العوض عما حُرموا من الوطن والعشيرة : ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

(النحل: ٤١، ٤٢)

وقد عرفنا فى قصة نبى الله أيوب عليه السلام ، كيف صبر على ما أصابه من ضُرٍّ فى نفسه وأهله ، فانتهى به الصبر إلى أجمل العواقب ، وكشف الله عنه ضُرَّه . ووهب له أهله ومثلهم معهم ، رحمة من عنده ، وذِكرى للعابدين ، وعبرة لأولى الألباب .

وهذا يؤكد لنا أن الصبر المر ، لا يُجتنى من ورائه إلا أحلى الثمرات فى الدنيا ، قبل الآخرة .

ومن هنا جاء خطاب الله تعالى لرسوله فى سورة هود إذ يقول : ﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (هود:١١٥) فثمرة الصبر لا تضيع فى الأولى ولا الآخرة .

ويتحدث القرآن على لسان يوسف حين كشف لإخوته عن نفسه فقالوا :﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف:٩٠).ويُعقِّب القرآن على موقف يوسف بعد أن استدعاه الملك واستخلصه لنفسه ، وقال له فى اعتزاز وتكريم : ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ (يوسف:٥٤) يُعقِّب القرآن فيقول : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ (يوسف:٥٦،٥٧).

وقد نبَّهت الآية الأخيرة إلى أن قوله تعالى : ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ إنما يُراد به ـ أولاً وبالذات ـ أجر الدنيا ، وجزاء العاجلة ، أما أجر الآخرة وثوابها فقد أفادته الآية الثانية : ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ .

ومن الوقائع الثابتة التى تدل على أن الله يُعَوِّض الصابرين خيراً مما فقدوا ما رواه مسلم فى صحيحه عن أم سلمة ـ أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ، قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من عبد تُصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللَّهم ائجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها . إلاَّ آجره الله فى مصيبته ، وأخلف له خيراً منها » قالت : فلما توفى أبو سلمة ، قلت كما أمرنى رسول الله ﷺ فأخلف الله لى خيراً منه : رسول الله ﷺ .

٥- الاستعانة بالله

ومما يُعين المبتلى على الصبر أن يستعين بالله تعالى ، ويلجأ إلى حِماه ، فيشعر بمعيته سبحانه ، وأنه فى حمايته ورعايته . ومن كان فى حِمى ربه فلن يُضام .

وفى هذا يقول تعالى فى خطاب المؤمنين :﴿ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(الأنفال:٤٦)

وفى خطاب رسوله : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (الطور:٤٨).

ومن كان بمعية الله مصحوباً ، وكان بعين الله ملحوظاً ، فهو أهل لأن يتحمل المتاعب ويصبر على المكاره .

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم ، فالمخاوف كلهن أمان !
واصطد بها العنقاء ، فهى حبائل ... واقتد بها الجوزاء ، فهى عنان!

ولما هَّدد فرعون موسى عليه السلام وقومه ، أن يُقَتِّل أبناءهم ، ويستحيى نساءهم ، مستخدماً سيف القهر والجبروت ، قال موسى لقومه : ﴿ **ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوا۟** ﴾ (الأعراف:١٢٨)

ولعل حاجة الصابرين إلى الاستعانة بالله تعالى والتوكل عليه هى بعض أسرار اقتران الصبر بالتوكل على الله فى آيات كثيرة مَرَّ بنا بعضها . مثل قوله تعالى : ﴿ **ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ (النحل:٤٢) ، وقوله تعالى على ألسنة الرسل : ﴿ **وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾ (إبراهيم:١٢).

٦- الاقتداء بأهل الصبر والعزائم

ومما يُعين على الصبر : التأمل فى سِيَرِ الصابرين ، وما لا قوه من صنوف البلاء ، وألوان الشدائد ، وبخاصة أصحاب الدعوات ، وحملة الرسالات ، من أنبياء الله ورسله ، المصطفين الأخيار ، الذين جعل الله من حياتهم وجهادهم دروساً بليغة لمن بعدهم ، ليتخذوا منها أُسوة : ويتعزُّوا بها عما يصيبهم من متاعب الحياة وأذى الناس .

ومن هنا حرص القرآن ـ المكى خاصة ـ على ذكر قصص الأنبياء بل تكرار الكثير منها فى العديد من سوره ، تسلية للنبى ﷺ والمؤمنين معه ، وتثبيتاً لقلبه فى مواجهة أعداء دعوته ، وما أكثرهم وأعتاهم .

وفى هذا المعنى نقرأ فى خواتيم سورة هود ، وقد قَصَّ الله عليه فيها قصص عدد من إخواته المرسلين : ﴿ **وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (هود:١٢٠).

وفى سورة الأنعام يُبَيِّن الله تعالى لرسوله أن ما يلقاه من تكذيب وإيذاء ليس بدعاً مما أصاب الرسل من قبله ، يقول : ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ**

مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الأنعام: ٣٤).

وفى سورة إبراهيم يحكى القرآن على لسان رسل الله عليهم السلام فى الرد على قومهم : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (إبراهيم: ١٢).

ثم ذكر بعدها بعض ما أصاب الرسل من أهل الكفر والعناد ، فقال : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (إبراهيم: ١٣).

وكم رأينا من رسول دعا إلى الله وتوحيده ، فهدَّده قومه بالنفى من الوطن والإخراج من الأرض أو الرجوع إلى شركهم ووثنيتهم وضلالهم ، نقرأ هذا فى قصة شعيب بعد أن نصح لهم أبلغ النصح ، وخطبهم أروع الخُطب ، وختم خطبته بقوله : ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٧).

فلم يكن منهم أمام هذا القول البليغ إلا أن ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٨، ٨٩).

ونقرأ فى قصة لوط كيف هُدّد كذلك بالطرد والإبعاد ، لا لشىء إلا لأنه تَنَزّه عن قبائحهم ، وتَطَهَّر عن القذارات التى يرتكسون فيها ، وأنكر عليهم الفاحشة التى ابتكروها ، فقالوا فى جراءة وقحة : ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (النمل: ٥٦).

وفى آخر آية من سورة الأحقاف يجىء الخطاب الإلهى للرسول قائلا : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ (الأحقاف: ٣٥).

فإذا ضاق صدره يوماً بما يقولون أو يفعلون ، أو أدركه الحزن عليهم ، والضيق مما يمكرون ، وجد فى صبر إخوانه من الرسل قبله ما يشد أزره ، ويمضى عزمه ، ويذهب همه : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ (الأنعام: ٩٠).

ولهذا ذكَّره الله تعالى بما أصاب عبده ورسوله أيوب عليه السلام من البلاء ، وما واجهه به من الصبر ، فقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾ إلى أن قال : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (ص: ٤١-٤٤).

كما ذكر القرآن الكريم المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ حين اشتد بهم البلاء فى مكة ، وأحدقت بهم الفتن من كل جانب ، بأنهم ليسوا بدعاً فى أتباع الرسل ، وليسوا أول من فُتن فى دينه ، وابتلى فى سبيل الله ، بل هذه سنة الله فيمن قبلهم : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾(العنكبوت: ٢،٣).

ونحو ذلك قوله سبحانه لهم فى المدينة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة: ٢١٤).

وعلى منهج القرآن سار النبى ﷺ فى توجيه أصحابه ، إذ ضرب لهم الأمثلة ، بما أصاب المؤمنين من قبلهم ، من ألوان البلاء وكيف غلبوه بالصبر ليكون فى ذلك لهم عزاء وسلوى ، وأُسوة .

فعندما ذهب خَبَّاب بن الأرتَّ يشكو إليه ضراوة ما يلقى من أذى وفتنة فى دينه هو وإخوانه من المستضعفين وقال : يا رسول الله ، ألا تستنصر لنا ؟ ! ألا تدعو الله لنا ؟ فقال ﷺ :« قد كان من قبلكم ، يُؤخذ الرجل فيُحفر له فى الأرض، فيُجعل فيها ، ثم يُؤتى بالمنشار ، فيوضع على رأسه ، فيُجعل نصفين ، ويُمشَّط بأشماط الحديد ، ما دون لحمه وعظمه ، ما يصده ذلك عن دينه ، والله ليُتمَّن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون »[1].

---

(١) رواه البخارى وغيره .

٧- الإيمان بقدر الله وسننه

ومما يُعين المرء على الصبر إيمانه بأن قَدَرَ الله نافذ لا محالة ، وأن ما أصابه لم يكن ليُخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليُصيبه . جفَّت الأقلام ، وطُويت الصحف .

إن الارتكان على الأقدار فى مثل هذا المقام أمر مشروع ومحمود ، لأنه إحالة على القَدَرِ فيما لا يَدَّ للإنسان فيه ولا اختيار ، من نوائب الدهر ، ونكبات الأيام . وهذا له أثره فى نفس الإنسان ، حيث يُخَفِّف عنها لوعة الأسى على ما فاتها ، والحزن على ما أصابها .

وفى هذا يقول القرآن : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ (الحديد: ٢٢، ٢٣).

وإذا كانت مقادير الله نافذة ، رضى الإنسان أم سخط ، صبر أم جزع ، فإن العاقل ينبغى أن يصبر ويرضى ، حتى لا يُحرم المثوبة ، وإلا فإنه سينتهى رغماً عنه إلى صبر الاضطرار ، الذى ليس له قيمة خُلُقية ولا دينية « إنما الصبر عند الصدمة الأولى ».

ولقد عزَّى أمير المؤمنين علىّ كرَّم الله وجهه رجلاً فى ابن له مات ، فقال : يا أبا فلان ، إنك إن صبرت نَفَذَت فيك المقادير ، ولك الأجر ، وإن جزعت نَفَذَت فيك المقادير ، وعليك الوزر .

وقال الأشعث بن قيس : « إن أنت صبرت إيماناً واحتساباً ، وإلا سلوت سلو البهائم »!

وقال حكيم : « العاقل يفعل فى أول يوم من المصيبة ، ما يفعله الجاهل بعد أيام ».

ومما يندرج فى هذا المعنى أن يعلم أن الجزع والهلع والضيق والتبرم لا تُرَدّ ما فات . ولا تحيى ما مات ، ولا تُغَيّر من قوانين الله فى كونه ، وسننه فى خلقه ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (فاطر: ٤٣).

وإن التسليم بالواقع هو مقتضى العقل والدين معاً ، وإلا فليفعل ما يشاء من إظهار الكآبة والهلع ، والمبالغة فى التوجع والتشكى ، فهل يُغَيّرُ هذا من الواقع شيئاً ؟ وهل يُبَدِّل سنن الله فى الكون ؟ بالقطع لا . وإنما يزيد النفس كمداً وغماً .

وإلى هذا المعنى يُشير القرآن فى خطابه للرسول ﷺ حين آذاه موقف قريش منه وتكذيب المشركين له ، وقولهم فيه ما يُحرج النفس ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (الأنعام:٣٣-٣٥).

فانظر إلى الآية الأُولى كيف أزالت الوحشة والحُزن عن قلب النبى ﷺ حين ذكرت له أن تكذيبهم ليس لشخصه ، وإنما هو جحود وتكذيب لربه سبحانه ثم عَزَّاه الله وواساه ببيان سُنة الرسل من قبله ، فكلهم قُوبلت دعوتهم بالتكذيب وأشخاصهم بالإيذاء ، على ما كُذبوا وأُوذوا ، ولم يجزعوا أو ييأسوا ، حتى جاءهم نصر الله فى النهاية ، وهذه سُنة الله لا تبديل لها . فاصبر ـ يا محمد ـ كما صبروا ، تظفر كما ظفروا .

وإن شَقَّ على نفسك إعراضهم عنك ، وذهبت نفسك عليهم حسرات ، وضاق صدرك بما يطلبون من آيات ، فليس لك إلا الصبر ، وإلا فافعل ما بدا لك ، فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض تهرب منه ، أو سُلماً فى السماء تصعد عليه ، فدونك فافعل .

ومثل هذه الآية قوله تعالى فى سورة الحج فيمن يئس من نصر الله ، وقنط من رحمة الله وضاق ذرعاً وحرج صدراً : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ (الحج:١٥)

ولهذا قيل : الصبر حيلة مَنْ لا حيلة له ، لأن الأمر إذا كان بيد غيرك ، لم يكن لك إلا الصبر عليه ، ولأن الشىء إذا كان لا يأتيك إلا قليلاً قليلاً ، وأنت محتاج إليه ، لم يكن لك إلا الصبر عليه ، وإلا انقطع ذلك القليل .

٨- الحذر من الآفات العائقة عن الصبر

ولا بد للإنسان عامة ، وللمؤمنين خاصة ، ولحملة الدعوات على وجه أخص ، إذا أرادوا أن يعتصموا بالصبر ، أن يحذروا من الآفات النفسية ، التى تعوقه وتعترض طريقه . من هذه الآفات التى أشار إليها القرآن :

(أ) **الاستعجال** : فالنفس مولعة بحب العاجل ، والإنسان عجول بطبعه حتى جعل القرآن العَجَلَ كأنه المادة التى خُلِقَ الإنسان منها ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ (الأنبياء:٣٧) فإذا أبطأ على الإنسان ما يريده نفد صبره ، وضاق صدره ، ناسيا أن لله فى خلقه سنناً لا تتبدل ، وأن لكل شىء أجلا مسمى ، وأن الله لا يَعْجَل بَعَجَلَةِ أحد من الناس ، ولكل ثمرة أوان تنضج فيه ، فيحسن عندئذ قطافها ، والاستعجال لا يُنضجها قبل وقتها ، فهو لا يملك ذلك ، وهى تملكه ، ولا الشجرة التى تحملها ، إنها خاضعة للقوانين الكونية التى تحكمها ، وتجرى عليها بحساب ومقدار .

ولهذا خاطب الله رسوله بقوله : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ (الأحقاف:٣٥) أى لا تستعجل للكفار العذاب ، فإن لهم يوماً موعوداً .

وقد كان المشركون لجهلهم وسفههم ، يستعجلون عذاب الله ، غروراً منهم وعناداً ، فيرد الله عليهم بما يُسكتهم ويُبكِّتهم ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (العنكبوت:٥٣) ، ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾

(الحج:٤٧)

(ب) **الغضب** : فقد يستفز الغضب صاحب الدعوة ، إذا ما رأى إعراض المدعوين عنه ، ونفورهم من دعوته ، فيدفعه الغضب إلى ما لا يليق به من اليأس منهم ، أو النأى عنهم . مع أن الواجب على الداعية أن يصبر على من يدعوهم ، ويعاود عرض دعوته عليهم مرة بعد مرة . وعسى أن يتفتح له قلب واحد يوماً ، تشرق عليه أنوار الهداية ، فيكون خيراً له مما طلعت عليه الشمس وغربت .

وفى هذا يقول الله لرسوله : ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (القلم:٤٨-٥٠).

وصاحب الحوت المذكور هنا هو يونس عليه السلام ، وقد لقب فى سورة «الأنبياء» أيضاً «ذا النون» ، وإنما أضيف إلى النون أو الحوت ، لأنه التقمه ثم نبذه . وقد أُشير إلى قصته فى «الأنبياء» وفُصِّلت بعض التفصيل فى «الصافات».

وخلاصتها : أنه أُرسل إلى أهل قرية عرفت باسم «نينوى» بالعراق ، فدعاهم إلى توحيد الله ، فأعرضوا ونأوا بميامنهم عنه ، ولم يجد من يستجيب لدعوته منهم ، فسرعان ما فرغ صبره ، وضاق صدره ، فغادرهم ثائراً مغاضباً قبل أن يأذن الله له ، ظناً منه أن أرض الله واسعة ، ولن يُضَيِّق الله عليه ، فإن يكفر به هؤلاء ، فقد يجد فى غيرهم المؤمنين الصالحين .

واندفع وراء غضبه على القوم ، حتى انتهى إلى شاطئ البحر . فوجد سفينة مشحونة مملوءة بالركاب . فركب فيها ، حتى إذا كانت فى عرض البحر ثقلت وأوشكت أن تغرق ، فاقترح رَبَّانها إلقاء واحد من ركابها فى البحر ، لتخف وينجو الباقى ، فساهموا - أى اقترعوا - على ذلك ، فكانت القُرعة على يونس ، وأُلقى فى البحر ، ليلتقمه حوت عظيم ، لبث فى بطنه أياماً لا يعلمها إلا الله . وفى هذا الكرب والضيق والظلمات المتراكمة : ظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، وظلمة الليل ، نادى يونس ربه : ﴿ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء:٨٧) فاستجاب الله له ونَجَّاه من الغم . فلفظه الحوت على الساحل ، ونُبِذَ بالعراء ، وهو سقيم ، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين . وأرسله إلى قوم آخرين ، فآمنوا فمتعهم الله إلى حين .

والشاهد هنا : أن الله يُحَذِّر خاتم رسله محمد ﷺ من الاستجابة إلى داعى الغضب ، الذى قاد يونس إلى ما قصَّه الله عليه ، وجَرَّ عليه من البلاء ما جَرَّ ، وإنما عليه أن يصبر لحكم ربه ، ويثبت على دعوته ويتحمل أعباء رسالته ، ولا يندفع وراء انفعالاته ، وإنما ينتظر أمر مولاه ، ويترقب فى النهاية نصر ربه .

(جـ) **شدة الحزن والضيق مما يمكرون** : فليس أشد على نفس المرء المخلص لدعوته من الإعراض عنه ، والاستعصاء عليه . فضلاً عن المكربه ، والإيذاء له ، والافتراء عليه ، والافتنان فى إعناته ، وفى هذا يقول الله لرسوله : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (النحل:١٢٧)، ثم يؤنسه بأنه فى معيته سبحانه ورعايته فيقول : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (النحل:١٢٨).

ولقد بلغ الضيق والحزن بالنبى ﷺ من إعراض القوم وتعنتهم وافترائهم مبلغاً جعل القرآن يخاطبه فى لهجة حاسمة ، فيقول : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (هود:١٢).

وفى مواضع أُخر يقول ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء:٣)، ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (الكهف:٦)، ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (فاطر:٨)

وفى مقام آخر يقول فى أسلوب صارم : ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (الأنعام:٣٥).

وفى موضع آخر : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس:٩٩)؟ !

فالإيمان والكفر والهدى والضلال ، كلها واقعة فى الوجود بمشيئة الله تعالى لهذا الكون ، وأجرى بها أقداره ، فينبغى مراعاة هذه السُّنن لا مغالبتها فإنها غلاَّبة وهذا كله تعليم للدعاة إلى الله وتنبيه لهم إلى أن تقوم الساعة .

(د) **اليأس** : فهو من أعظم عوائق الصبر ، فإن اليائس لا صبر له ، لأن الذى يدفع الزارع إلى معاناه مشقة الزرع وسقيه وتعهده ، هو أمله فى الحصاد ، فإذا غلب اليأس

على قلبه ، وأطفأ شعاع أمله ، لم يبق له صبر على استمرار العمل فى أرضه وزرعه . وهكذا كل عامل فى ميدان عمله ، وصاحب الدعوة والرسالة كذلك .

ولهذا حرص القرآن على أن يدفع الوهم عن أنفس المؤمنين فبذر الأمل فى صدورهم : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (آل عمران:١٣٩،١٤٠)، ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ (محمد:٣٥).

ولما أمر موسى قومه بالصبر إزاء طغيان فرعون وتهديده ، أضاء أمامهم شعلة الأمل ، فقال : ﴿ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ

(الأعراف:١٢٨،١٢٩)

ولما شكا خَبَّاب بن الأرت إلى النبى ﷺ ما يلقى من أذى المشركين ، شكوى تحمل معنى الضيق والتبرم ، ضرب له النبى ﷺ مثلاً بما لقيه المؤمنون فى الأزمنة الماضية ، ثم طرد عن قلبه اليأس ، وزرع فيه الأمل الخصب ، حين أخبره أن الله سيُتم هذا الأمر حتى يسير الراكب من أقصى الجزيرة إلى أقصاها ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ! !

وما ذلك إلا لأن الأمل أكبر معوان على الصبر على طول الطريق ، ومشقاته ، وأن اليأس من أعظم المعوقات عن الصبر .

وفى الختام : نسألك اللَّهم أن ترزقنا الصبر على طاعتك ، والصبر عن معصيتك ، والصبر على أقدارك ، والصبر على أذى خلقك ، والصبر على مشاق الدعوة إليك ، حتى نكون من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .

واجعلنا اللَّهم من الصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، والصابرين فى السراء والعافية ، واجعل صبرنا فيك ولك ، حتى نكون من الذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وكانوا أهلاً لجنات عدن ﴿ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾

(الرعد:٢٣،٢٤)

* * *